

خدمات اصلاحية لجمال الدين الافغانى

و

القرن الخامس عشر الهجرى

بقلم : الاستاذ فضل معبود فضل عليم

الاستاذ المشارك

بقسم اللغة العربية

جامعة بشاور - باكستان

ان أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الهجرى كان عهد النكبة للعالم الاسلامى عامة ، حيث كان أكثر البلاد الاسلامية تحت السيطرة الاجنبية مباشرة أو غير مباشرة ، وأما الخلافة العثمانية فكانت توصف بالرجل المريض ، حيث كانت تدبر المؤامرات ضدها فى الداخل والخارج ، وكانت الدول الاجنبية شرقية كانت أو غربية تريد أن تنال منها ، وتزعزع كيانها فى الداخل والخارج معا. وتقطع منها قطعة بعد قطعة اضعافا لها. وازالة لسلطانها من أكثر البقاع التى كانت تحت رايتها من البلاد الاسلامية.

هذا من الناحية السياسية ، ومن الناحية الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والدينية فحالة البلاد الاسلامية كان يؤسف لها ، كان الانهيار الاقتصادى. والتدهور الاجتماعى الخلقى. والتخلف العلمى ، والانحراف الدينى من حظ العالم الاسلامى خاصة ، والشرق عامة ، وفى هذا الوقت ، وهذه الاوضاع نشأ شخص فى

منطقة كتر بأفغانستان عرف فيما بعد باسم السيد جمال الدين الأفغاني ، درس ما درس من العلوم الاسلامية والعربية فى بلاده ، ثم ذهب الى الهند و تثقف بالثقافة الغربية الحديثة ، وذهب الى البلاد العربية لأداء فريضة الحج ، وتعرف أثناء ذلك بأحوال المسلمين وتفحص عن دائه وبحث عن دوائه ، ثم عاد الى بلاده ، ومكث مرة يحاول الاصلاح الا أن المؤامرات الداخلية والخارجية اقلقتة ولم تمكنه من أن تقوم باصلاح البلاد ، وأخيرا شمر عن ساعد الجد ، وخرج من عرينه يقاوم عدو الله وعدو الاسلام وعدو الانسانية بكل ما فى وسعه ، وطاف بالبلاد ، وقام بما قام به من الحركات التحررية والاجتماعية والدينية والعلمية والأدبية ، وأدى من الخدمات التى ايقظت بها العالم الاسلامى من سبات الغفلة ، وأيقظ الشرق من نوم الجهل ، ونبه الانسانية الى العزة والشرف ، ودعا العلماء الى أن يقوموا بواجبهم الدينى والعلمى والاجتماعى فى توضيح التعاليم الاسلامية الصحيحة ، ونبذ الخرافات والبدع ، ودعا القادة والزعماء السياسيين الى أن يقوموا على أقدامهم ، ويدعوا أممهم وشعوبهم الى أن يعملوا لأوطانهم بكل جد واخلاص ، ويحرروها من براثن الاستعمار ، ودعا الأمراء ، والسلاطين الى أن يتنبهوا الى مؤامرات الاعداء والاجانب ، وأن يراعوا مصالح البلاد والشعوب ويضحوا بأغراضهم الشخصية فى سبيل الاغراض العامة ، وأن يبذلوا كل غال ونفيس لخدمة الاسلام والمسلمين ، وأن يتعاونوا ويتضامنوا فيما بينهم ضد أعداء الاسلام والمسلمين .

كرس حياته لهذه المبادئ السامية ، ولم يستقر له بال ، وقاسى فى سبيل هذه المبادئ ما قاسى من المصائب والشدائد ، نفى من بلد الى بلد ، وشرد من مكان الى مكان ، وعومل بالشددة والبربرية الا أنه لم يتزعزع قيد شعرة عن موقفه السديد ، لأنه كان صاحب مبدأ قويم ، لم يكن يطمع فى مال ولا جاه ولا ملك وامارة ، وانما كان كل همه أن يرى المسلمين فى قوة وعزة وشوكة وعظمة وأن تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، ولذلك لم يبن له بيتا ، ولم يستقر فى بلد

، وانما كانت أرض الله واسعة فطاف في أرجائها داعيا الى الله والى دينه ، داعيا المسلمين الى العمل بالقرآن الكريم ، ليستردوا عزتهم وسلطانهم . وأن لا يكونوا تحت ولاية الاجنبي الغاشم ، وبالاختصار أذكر بعض ما قام به السيد جمال الدين من الخدمات فى سبيل التعليم والاصلاح والسلوك الخلقى ومقاومة أعداء الدين ، والزعامة الاسلامية الدولية :

المنهج التعليمى

كان السيد جمال الدين يرى أن يوضع منهج يكون من شأنه تكوين فرد صالح للمجتمع فى جميع مجالات الحياة ، وأن يكون هذا الفرد بمنزلة لبنة صالحة فى بناء كيان الأمة ، ونهضتها نهضة كاملة متكاملة ، وفى كل ذلك جعل الدين أساسا . لان السيد كان يعتبر الدين ضروريا لصالح الأمة ، وكان يرى أنه لا يمكن أن يتقدم أية أمة بدون الدين ، وكان يقول ان الدين الاسلامى أعظم الاديان حيث قال : «فتبين مما قررناه أن الدين - وان انحطت درجته بين الاديان ، ووهى أساسه . فهو أفضل من طريقة الدهريين ، وأمس بالمدينة ، ونظام الجمعية الانسانية وأجسل أثرا فى عقد روابط المعاملات ، بل فى كل شان يفيد المجتمع الانسانى ، وفى كل ترق بشرى الى أية درجة من درجات السعادة فى هذه الحياة الأولى فلن تبق ريبة فى أن الدين هو السبب الفرد فى سعادة الانسان ..»

ويقول :

«إذا نظرنا فيما بين أيدينا من الاديان وجدنا دين الاسلام قد أقيم على أساس من الحكمة متين ، ورفع بناؤه على ركن لسعادة البشر ركين ، ذلك أن عروج الأمم على معارج الحق الأعلى ، وتدرج الشعوب فى مدارج العلم الأجلى ، وصعود الأجيال على مراقى الفضائل ، واشراف طوائف الانسان على دقائق الحقائق

،ونيلهم للسعادة الحقيقية فى الدارين ،كل ذلك مشروط بأمور لا يتم الا بها، وهذه الامور لا توجد الا فى الاسلام. وهى من مزايا الاسلام. ولذا كان الاسلام أعظم الاديان ، وبين السيد هذه الامور فيقول :

أولا : صقل العقول بصقال. «التوحيد» وتطهيرها من لوث الأوهام.

ثانيا : ان الدين الاسلامى فتح أبواب الشرف فى وجوه الانفس ،وكشف لها عن غايته ،وأثبت لكل نفس صريح الحق فى أى فضيلة ،وأنبأ كل ذى نطق بوفرة استعداد لأى منازل الكرامة ،ومحق امتياز الأجناس ،وتفاصيل الأصناف ،وقرر المزايا البشرية على قاعدة الكمال العقلى ،والنفسى لاغير

ثالثا : جعل العقيدة قائمة على الاقناع لا على التقليد ،واتباع ما كان عليه الآباء والدين الاسلامى كلما خاطب خاطب العقل» (١).

وكان السيد الافغانى يهتم لذلك بتعليم الطفل وتربيته أحسن تربية حيث يقول : «أما الأطفال والصبيان فأحسنوا للاول تربية الأم ،وأما الثانى (وهم الصبيان) فأغلقوا فى وجوههم مدارس الحكومة» (٢) وفتحوا لهم أبواب المكاتب الأهلية وبالاختصار تجعلون المدارس الاهلية الوطنية دور علم وعمل ،ولتكن تلك المدارس بعيدة من مزدحم الخلق وفساد الهواء ، فسيحة الأرجاء ، متنسقة تقسيم البناء ،فكما يكون فيها غرف لتلقين العلوم هكذا يكون فيها أما كن لمزاولة العمل» (٣).

هكذا كان السيد الافغانى يرى أن يكون المنهج التعليمى مبنيا على أساس العلم والعمل معا ،ويكون مأخوذا من صميم الدين الاسلامى الذى يدعو الى

الفضيلة والى الصدق والأمانة والحياة والكفاح.

العمل الاصلاحى

قام السيد الافغانى بكثير من الاصلاحات فى البلاد الاسلامية والشرقية قاصدا من ورائها استرداد القوة والعزة والرفاهية للشرقيين عامة والمسلمين خاصة ومن هذه الاصلاحات ما قام به من تنظيم البريد، وانشاء الجريدة وتحسين المرافق الاخرى فى أفغانستان وتأليف رسالة الرد على الدهريين فى الهند وتقديم اقتراح جامعة تدرس فيها العلوم باللغة الاردية فى حيدرآباد دكن، وتكوين جمعية أم القرى فى مكة المكرمة لصالح المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، وتكوين الجمعية الخيرية فى مصر، الجمعية التى أتت بأعجب العجب فى فترة وجيزة من الزمن فى اصلاح المجتمع، وانشاء الجرائد المتعددة فى مصر التى قامت بالنهضة العلمية والأدبية والفكرية. والتى أيقظت الناس الى حقوقهم، والمقالات الجامعة فى ايران وتركيا التى كان لها دوى فى هذه البلاد، واصدار مجلة العروة الوثقى من باريس التى كانت تدعو الى ايقاظ المسلمين، وتدعوهم الى العودة الى الاسلام، والتمسك بالقرآن الكريم، ونبذ ولاية الاجنبى فى أى ثوب كان ودعوتهم الى التضامن والتآخى ضد اعداء الاسلام والمسلمين، المجلة التى كانت شواظا من النار على الاعداء، كل هذه اشارات ورموز الى الاصلاحات التى - قام بها السيد الافغانى.

السلوك الخلقى

كان السيد يرى أن يتزين كل فرد من أفراد المجتمع البشرى بالاخلاق الفاضلة، ليكون بذلك فردا صالحا فى بناء المجتمع الانسانى، ويكون موجب للتقدم فى جميع المجالات من مجالات الحياة، وموجبا للسعادة الأبدية فى الآخرة.

، وأهم الخصال التي كان يدعو إليها هي : الحياء ، والأمانة والصدق ، وكان يراها موجبا للسعادة البشرية ، وهي الخصال التي يدعو إليها الدين الاسلامي ، يقول السيد في ذلك :

«ان الحياء أكثر تأثيرا في نظام الحياة البشرية ، ومنع النفوس عن ارتكاب الأمور القبيحة من مئات القوانين وآلاف الشرط ، والمحتسين ، لأن من فاته الحياء يفعل ما يشاء لا يردعه الى شيء بعد ذلك من ارتكاب الدنيايا والقبايح ولذا يلزم الحياء سرف النفس وعلبه دائرة المعاملات ، وتنصل به سلسلة النظام وهو رأس مال الاساس في جميع المكارم ، وهو مدعاة للناس الى العمل الشريف ، وعمل كل ما من سانه يرفع الاساس الى العظمة في جميع ميادين الحياة ويقول :

«الامانة ضرورية جدا في جميع المعاملات ، وفي الواقع ان الامانة روح المعاملات والمعاوضات في منافع الاعمال سواء كان بين الفرد والفرد ، أم بين الفرد والحكومة ، أم بين الحكومة والحكومة ، وهي ضرورية في جميع قطاعات الحكومة من القواد ، والأمراء ، والوزراء ، والقضاة ، والولاة ، والحراس ، وجباة الاموال ، والصرف في وجوه مختلفة ، لان الامانة اذا كانت موجودة فيهم ، قام كل قطاع وطبقة بعمله خير فيام ، والافساح الفساد ، وضاعت الحقوق ، وصار الدمار في كل قطاع حليف الأمة ...

ويقول :

«الانسان في حياته كثير الاحتياجات والضروريات ، وليس عنده علم كاف بجميع ما يفيد في حياته ، وما يضره ، ولذا يحتاج الى الاستعانة بمشاعر أمثاله من بنى جنسه ، والاستهداء بمعارفهم فيما يفيد ، ويمنع عنه ضره ، والاستهداء ، هذا يكون بالاستخبار ، ولا تتم فائدة الخير الا أن يكون من مصدر

صدق أى يكون الشخص الذى يخبر صادقا فيما يقول ، يحدث عن موجود ، ويحكى عن مشهود والافلا فائدة.

وذلك أن الكاذب يرى البعيد قريبا ، والقريب بعيدا ، ويظهر النافع فى صورة الضار ، والضار فى صورة النافع ، فهو سبب المصائب كلها.

فعلى ما تقدم يعتبر الصدق ركنا ركينا للوجود الانسانى ، وعمادا للبقاء الشخصى والنوعى وموجبا للربط بين الناس ، ولا يمكن أن تتحقق الألفة مدنية كانت أو منزلية بدونه ، والأمة التى فقدت خصلة الصدق التصق بها الدمار والخراب ..

وكان السيد يرى الخراب والدمار ، والذل والمسكنة فى الكذب والوهم والجبن ، والخوف وكان يحذر الناس من ذلك أشد التحذير ، وكان يضرب أمثالا لذلك بالحوادث التاريخية والحقائق الثابتة مدعمة بأدلة وبراهين ساطعة.

مقاومة أعداء الدين

كان السيد طول حياته يقاوم أعداء الدين فى أى شكل كانوا ، وفى أية صورة ظهروا ؛ كان يقاومهم فى الداخل والخارج ، كان يقاوم مرة هؤلاء الذين كانوا يتلبسون بلباس الدين وفى الواقع كانوا بعيدين عن الدين الصحيح . كما كان يقاومهم تارة وهم متلبسون بصورة الدهريين ، وأخرى يقاومهم وهم فى صورة المبشرين ، وأخرى فى شكل الساسة والقادة ، كان يحاربهم محاربة شديدة ، ولم يكن يخاف فى ذلك لومة لائم ، ويصرح بذلك وينادى بأعلى الصوت بأن الدين الاسلامى دين لا يأتىه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهاك ما قاله السيد فى القضاء والقدر ردا على بعض أعداء الدين الاسلامى :

«هكذا ظنت طائفة من الأفرنج ، وذهب مذهبهم كثيرون من ضعفاء العقول فى المشرق ، ولست أخشى أن أقول : كذب الظان ، وأخطأ الواهم ، وبطل الزاعم ، وافتروا على الله والمسلمين كذبا ، لا يوجد مسلم فى هذا الوقت : من سنى ، وشيعى ، وزيدى ، واسماعيلى ، ووهابى ، وخارجى يرى مذهب الجبر المحض ، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرّة ، بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزءا اختياريا فى أعمالهم ، ويسمى بالكسب ، وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم ، وانهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختيارى ، ومطالبون بامثال جميع الأوامر الالهية والنواهى الربانية ، الداعية الى كل خير ، المهادية الى كل فلاح» (٥).

ومنها حوارته الشديدة مع الفيلسوف الفرنسى الشهير ارنست رينان ، حيث كان رينان القى محاضرة عن العلم والاسلام هاجم فيها أن الاسلام يحول دون التقدم العلمى ، وأن الاسلام سبب تأخر المسلمين فى ميدان العلم ، وكان السيد جمال الدين قد رد عليه ردا مفحما ، ودافع عن الاسلام دفاعا مبنيا على الحقائق والبراهين ، وأثبت أن الاسلام هو الدين الذى يدعو الى العلم والتفكر ، وهو دين يخاطب العقل ، وهو دين لايساوى بين العالم والجاهل ، وانما يفضل العالم على الجاهل واخيرا اقتنع رينان ، ولم يتمكن الا أن يعترف بفضل جمال الدين وسعة أفقه وتبحره فهذا رينان يقول :

«يخيل الى من حرية فكره ، ونبالة شيمه ، وصراحتة ، وأنا أتحدث اليه أنتى أرى وجهها لوجه أحد من عرفتهم من القدماء الفلاسفة وانى أشهد ابن سينا ، وابن رشد أو أحد من عرفتهم من أساطين الحكمة الشرقيين الذين ظلوا خمسة قرون يعلمون على تحرير الانسانية من الاسار» (٦)

الزعامة الدولية الاسلامية

كان السيد جمال الدين يرى أن يكون المسلم هو الذى يقود العالم ، ويكون هو زعيما لقيادة البشرية فى الحياة ، كما يأمره بذلك القرآن الكريم حيث قال الله تعالى : «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر» حيث وصفها الله تعالى فى كتابه المجيد بخير أمة ، وخيريتها بأن أفراد هذه الأمة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وفى موضع آخر يقول سبحانه وتعالى : «وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين فالعلو والرفعة للمؤمن ، وليس للكافر ، ويقول السيد جمال الدين فى ذلك :

«والديانة الاسلامية وضع أساسها على طلب الغلب والشوكة والافتتاح والعزة ورفض كل قانون يخالف شريعتها ، ونبت كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها» (٧).

ولذلك قام السيد جمال الدين بالدعوة الشاملة ، ودعا المسلمين الى العودة الى القرآن الكريم ، والتمسك بتعاليمه الحقبة حيث يقول :

«ومادام القرآن يتلى بين المسلمين ، وهو كتابهم المنزل وامامهم الحق وهو القائم عليهم ، يأمرهم بحماية حوزتهم ، والدفاع عن ولايتهم ، ومغالبة المعتدين ، وطلب المنعة من كل سبيل لا يعين لها وجهها ، ولا يخصص لها طريقا ، فاننا لا نرتاب فى عودتهم الى مثل نشأتهم ونهوضهم» (٨).

هكذا كان السيد جمال الدين فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر الهجرى يتعرف على أحوال المسلمين ، ويتفحص عن الداء ويصف الدواء ، ونص ما قال فى هذا :

«لقد جمعت ما تفرق من الفكر ، ولممت شعث التصور ، ونظرت الى الشرق وأهله ، فاستوقفتنى الأفغان ، وهى أول أرض مس جسمى ترابها ، ثم الهند ، وفيها تنقف عقلى ، فايران بحكم الجوار والروابط ، فجزيرة العرب ، من حجاز ، هى مهبط الوحي ، ومن يمن وتباعتها ، ونجد ، والعراق ، وبغداد وهارونها ومامونها ، والشام ودهاة الأمويين فيها ، والاندلس وحمراؤها ، وما آل اليه أمرهم ، فالشرق الشرق ، فخصصت جهاز دماغى لتشخيص دائه وتحرى دوائه ، فوجدت أقتل أدوائه داء انقسام أهله ، وتشتت آرائهم ، واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف ، فعملت على توحيد كلمتهم وتبنيهم للخطر الغربى المحقق بهم» .

هكذا كانت حالة المسلمين فى عهد جمال الدين الافغانى من التفرقة والاضمحلال ، والتشتت ، وفى الوقت الحاضر الحالة هى نفس الحالة لم تتغير ولم تبدل فى الواقع الا أن أكثرهم فى عهد السيد كانوا تحت السيطرة الاجنبية مباشرة أو غير مباشرة والآن قد تحرروا جسميا الا انهم لم يتحرروا ذهنيا ، والامراض الخلقية الاجتماعية من التفرق والتشتت والبغض والحقد ، والخوف والجبن والوهم والأناية والاثرة ، والجهل والكذب والنفاق والاختلاف على الاتحاد ، والاتحاد على الاختلاف منتشرة فيهم ، ونحن فى حاجة شديدة فى هذا القرن الخامس عشر الهجرى الى أمثال السيد جمال الدين من جديد ، لان الاطماع الاجنبية فى خيرات بلاد المسلمين ، والنيل من عقيدتهم الاسلامية ، والمؤامرات والدسائس لالقاء الخلاف بينهم هى هى ، فالى القرآن أيها المسلمون والى التمسك بتعاليمه ، والى التفكير والتدبير فيما قاله السيد جمال الدين الأفغانى رحمه الله ، كى نجعل القرن الخامس عشر الهجرى قرن العزة و السؤدد ، والقوة والغلبة للمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، والله على كل شىء قدير .

المراجع

- (١) رسالة الرد على الدهريين ، جمال الدين الافغانى ص ٦٠ - ٦٩ .
- (٢) يفصد بالمدارس الحكومية المدارس الحكومية الاستعمارية فى ذلك الحين.
- (٣) خاطرات - المخزومى ص ٢٠٠ .
- (٤) رسالة الرد على الدهريين ص ٣٥ - ٣٨ .
- (٥) العروة الوثقى .
- (٦) جمال الدين الافغانى - باعث النهضة الفكرية فى الشرق ، محمد سلام مذكور ، ص ١٣٩ .
- (٧) العروة الوثقى ص ٢٦
- (٨) ايضاً ص ٣٩ .
- (٩) ايضاً ص ٢ .